

الشيخ
محمد الفزالي

بقلم

الإنسان
في القرآن

ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب
الأول والأخير في انحذارهم !

إن للشيطان محطة إرسال يذيع منها فنون الاغراء والإغواء ،
والإنسان هو الذي يهيء أقطار نفسه لاستقبال هذه الاذاعات
والتجاوب معها .

وأنت الذي تتخير ما تسمع من محطات « الراديو » المختلفة ،
ولو شئت أغلقت للنفور ما تعاف سماعه ، أو ابتعدت عنه حتى لا
يصل صدهاء إلى سمعك ، أو قاومت به بمشاعر النفور والمقت حتى لا
يستولي عليك !!!

وقد منح الشيطان من أول يوم القدرة على اغواء الإنسان
وخداعه ، ودفعته خصومته إلى ابتكار وسائل كثيرة ونصب
أحاييل مختلفة لايقاع الأغرار والغافلين .

كانت الملائكة متشائمة من مستقبل الإنسان على ظهر الأرض ، لعلها أحسّت أن أصله الترابي سيجعله هشاً أمام الاختبارات الصلبة ، وأنه سيفقد تماسكه أمام الأهواء والمغريات ؟

لعلها رأت أنه يشبه أجناساً أخرى لم تصدع بأمر الله ، ولم تحسن تنفيذ وصاياه ؟
أو لعل شعاعاً من عالم الغيب طلع عليها فرأت معه صوراً من الحروب الدامية والمسالك المعوجة التي سوف يخوضها البشر ويظلمون بها أنفسهم .

على أية حال لقد تساءلت الملائكة مستغربة وقالت لله جل شأنه « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ » ؟ وكان الجواب الأعلى « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » !
وخلق الله آدم ووهب له عقلاً محيطاً بالأشياء كلها ، ووضع في هذا العقل خاصة باهرة يستمكن بها من معرفة الأسرار والظواهر ، ويهيمن بها على شتيت من القوى والعناصر ، إن هذا الإنسان المحدود في أعضائه ومشاعره يملك طاقات ضخمة تجعله سيداً لما حوله ، بل تجعله ملكاً واسع السلطان ممدود النفوذ .

ولعل الملائكة اليوم ترقبه دهشة وهو يخترق الفضاء ويغزو الكواكب .
لكن عظمة الإنسان لا تكمن في هذه القدرات الطيعة ، إنها تكمن في أمر آخر أهم منها وأجل ، هو معرفته لمن خلقه فسواه لمن أعلى قدره ورفع مستواه ! لله الذي خلق هذا الكون ومكنه فيه وسخره له .

إن هذا الفريق من الناس الذي عرف ربّه وأسلم له وجهه ، وافتتح مغاليق الحياة باسمه ، هو الذي يبرز الحكمة من وجود الإنسان في العالم ، وأحسب أن هذا الفريق الصالح المصلح هو الذي استشفت الملائكة خبره ثم قالت لله « سُبْحَانَكَ لَا

عَلَّمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»

وقصة الحياة الإنسانية كما ساقها القرآن الكريم تستوقف النظر من نواح عدة نحب أن نتيبها :

أولها هذا التنعيم الذي أحاط بها منذ بدايتها فبين يدي عرض القصة في سورة البقرة نقرأ قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً... » وقبل ذلك بقليل نقرأ « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ » .

وبين يدي عرضها في سورة الأعراف نقرأ قوله « وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ... »

وبين يدي عرضها في سورة الحجر، سردٌ للنعم التي تحف الحياة البشرية نقرأ منه قوله تعالى « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » .

والواقع أن الرغبة الذي يطعمه إنسان تشترك في إنباته وإنضاجه فجاء الأرض وآفاق السماء .

فقرية الأرض ، والسحب الهامية ، والأشعة العمودية أو المائلة التي تتعرض لها الحقول وأثر الضوء في تكوين الحضرة مثلاً وأشياء أخرى كثيرة تتعاون جميعاً على

تكوين الغذاء والكساء والدواء الذي يحتاج إليه البشر .

إن شبكة من المواد الدقيقة جداً ، والجسيمة جداً ، انتظمت في خدمة الإنسان وتأمين معاشه وتخطيط حاضره ومستقبله ، كل يؤدي دوره بوفاء وقدرة ، الكواكب السابحة في الفضاء ، والجراثيم التي لا تراها العين !!

وذاك سرّ الأقسام الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم مشيرة إلى فخامة هذا العالم « فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » .

« كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ إِنَّهَا لَلِإِحْدَى الْكُبَرِ » .

وتدبر القسم بالرياح المثيرة والسحب الحافلة وما يتبع ذلك من زرع وحصاد وتجارة واحتراف وخيرات تعمّ البشر « وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسَّاتِ أَمْرًا إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ »

إن ربّ العالمين أبدع ما صنع ! وحدثنا عن هذا الإبداع لنعجب به ونتذوق جماله .

وإني لأستغرب أحوال ناس يتنسبون إلى الإسلام ويديرون ظهرهم للكون ، فلا يدرسون له قانوناً ، ولا يكشفون له سرّاً .

أي إيمان هذا؟ وأي جهل بقصة الحياة ووظيفة آدم وبنيه في ربوعها ..؟
إن الإنسان في القرآن الكريم كائن مكرم مفضل محترم مخدوم ، ومن حق الله تبارك اسمه أن يعاتب البشر على سوء تقديرهم لآلائه « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ !!

هذه ناحية تتصل بالتكريم المادي للإنسان ، وثم ناحية ثانية تتصل بكيانه المعنوي .

فالإنسان نفخة من روح الله الأعلى ، هكذا بدأ خلق آدم ، وهكذا تتخلق الأجنة في بطون الأمهات .

إن الحياة في شتى الأجسام المتحركة شيء ، وخصائص الحياة الرفيعة في أبناء آدم شيء آخر ، وقد أشاع الله نعمة الخلق بين خلائق كثيرة برزت من العدم إلى الوجود ، بيد أن آدم وحده هو الذي وصفه بقوله « سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي » .

واطرده هذا التكريم في ذريته إلى قيام الساعة « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ... » .

والإنسان بهذه النفخة كائن جديد يعلو فوق ما يشبهه من ضروب الحيوان ولذلك قال جلَّ شأنه « ... فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

وبعد أن تم خلق آدم على هذه الصورة أمر الله الملائكة أن تسجد له سجود تعظيم وتوقير لا سجود عبادة !!!

والملائكة هي التي أبدت دهشتها لإيجاد هذا الإنسان واستنكرت ما سوف يقع

منه من فساد وفوضى .

إنها طولبت بالسجود له بعدما تم تكوينه !! وعوقب من رفض السجود بالطرد
من رحمة الله .

وسواء كان إبليس من الملائكة ، أم صادف وجوده بينهم وهو من الجن ، فإن
النتيجة لا تختلف ، إذ أن الاستهانة بالإنسان هي عند الله عصيان وخيم العاقبة !
وهذا التكريم البين ينضم إليه أمر آخر عظيم الدلالة على مكانة الإنسان وحفاوة
الله به ، هذا الأمر هو الفرح الألهي بعودة الإنسان التائب واستقبال الله له بإعزاز
بالغ وتجاوزه عما فرط منه من خطأ وقوله في عفو شامل « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

* * *

كلتا الناحيتين من تكريم وتنعيم استتبعت ناحية ثالثة كان لها الأثر الأكبر في
مستقبل الإنسان ومستقبل الكوكب الذي أُعِدَّ لسكنائه ، بل في مستقبل المجموعة
الشمسية كلها التي سيتثر عقدها وينطفئ نورها مع انتهاء الرسالة الإنسانية على ظهر
الأرض .

هذه الناحية هي « التكليف » ، فإن الله الذي زوّد الإنسان بهذا السمو في مواهبه
لم يتركه سدى ، بل أمره ونهاه وطلب منه أن يفعل وأن يترك ! وربما كلفه أن يفعل
ما يثقله ، وأن يترك ما يشبهه !!

وهنا نقف وقفة يسيرة أمام سر التكليف ومعناه لنتناول جملة أمور .

إن أبانا آدم ، وهو الإنسان الأول ، كلف ألا يأكل من شجرة معينة وكان جديراً به أن يعرف حق الأمر جل شأنه وأن يدع الأكل من هذه الشجرة أبداً . ولكنه بعد مرحلة من الذهول والضعف عرضت له ساعة انهيار في إرادته وامتداد في رغبته فأكل من الشجرة المحرمة ، وشاركته زوجته في عصيانه فطردا جميعاً من الجنة .

وكانا قد أحسا بالخطأ الذي تورطا فيه فدعوا الله نادمين « قالا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ : فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » .

ونزل أبوانا إلى الأرض وشرع كثير من الأبناء يمثلون القصة نفسها ويرتكبون الخطأ ذاته ، ولكنه ليس أكلاً من شجرة بل اتباعاً للشهوات التي تقود إلى العصيان والحرمان !

العنوان متغير والحقيقة واحدة .. إن هذا السلوك من الإنسان الأول يجعلنا نتساءل عن علته ؟ والعلة واضحة فإن الإنسان بدأ حياته بطبيعة مزدوجة ، قبس من نور الله داخل غلاف من طين الأرض !!!

إن الله تبارك اسمه بعدما صوّر الإنسان من التراب وسواه ، نفخ فيه من روحه ، فإذا كائن عجيب يجمع النقائص في تركيبه ، يقدر على التسامي وعلى الإسفاف ، يقدر على الاستقامة وعلى الانحراف .

وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الخليط في التكوين البشري فقال جل شأنه « إِنَّا

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» كما نبه إلى أن الإمامه بالخطايا ليس مستغرباً ، إنه ينزع إلى عرق فيه ! «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» .

وكلتا الترتعتين الأرضية والسماوية تجد في الحياة - أو في البيئة - ما يضعفها أو يقويها ، وقبل ذلك كله تجد في الإنسان نفسه ما يرجح كفة على أخرى ، وما يسلم زمامه للخير أو للشر ، كما يريد هو لنفسه دون تدخل من أحد في اتجاهه هنا أو هنا .

إن إثثار الوقوف عند الإشارة الحمراء أو المروق منها والتعرض لأخطار الإنطلاق الأحمق تصرف إنسانيٍّ محض .

وفي هذا يقول تعالى : «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا - أي لو تسامى وترفع - وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ» فتركه الله حيث شاء لنفسه .

ولا بد من توكيد هذه الحقيقة حقيقة الإرادة الحرة في الصعود والهبوط ، في التقوى والفجور ، في إغضاب الله أو إرضائه ، فإن الرحمن الرحيم يستحيل أن ينقم على إنسان سعى في مرضاته ، كما أنه لا يرضى عن إنسان سعى في إغضابه .

وبعض الناس يماري في هذه الحقيقة عن مكابرة ، أو تمحُّل أعذار ، وهيهات فقصة الوجود الإنسانيّ تقوم على اختبار حقيقي لاكتشاف المحسن والمسيء «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» والمحسن إنسان اتقن العمل واحترم

الصواب . والمسيء إنسان فرط ولزم العوج ..

والعراك داخل النفس الإنسانية لاختيار أحد النهجين عراك حقيقي لا صوري .

وتلمح صدق هذا العراك وقبول نتائجه في قوله تعالى « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » !!

إن السالم في هذا العراك إنسان يشعر بقيام الله عليه وعلى سائر الكائنات ، ومع نماء هذا الشعور يخفت صوت الهوى ويغلبه صوت الضمير اليقظان أو القلب الحي .. فأين التمثيل أو المحاباة أو الخداع في هذه الحالات ؟

* * *

الله جل شأنه ينادي الإنسان ويذكره ويهديه ، وعلى الإنسان أن يلبي ويتذكر ويهتدي ، فإذا أبى إلا الشرود فهو وحده الملوم ، ومن ثم تقررت هذه الأحكام العادلة التي ندرکہا من قوله تعالى « قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ هُنَّ أَبْصَرٌ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا » « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »

والتزكية واندسية جهد بشري محض ، أو كذلك يكون أول الطريق ثم يلحقه من مشيئة الله ما يصل به إلى النهاية « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ » ..

ونتساءل مرة ثانية : ما قيمة الصوت المضلل الذي يستمع إليه الإنسان فيزيغ ويشقى ؟

الحق أنه صداه الضخم أضعاف أضعاف حقيقته التافهة ، إنه كنفق الضفدعة يملأ أكناف الليل ومصدره لا قيمة له !

ما الشجرة التي أكل منها آدم ؟ هل أحس طويلاً لذة ثمرها ومتعة ازدرادها ؟ لقد كانت وهماً هذه النشوة المأمولة ولو فرضناها لذة ساعة فما قيمتها ! إذا وزنت بما أعقبته من حشرات سنين عدداً ؟ بل دهراً طويلاً !!

إن الإنسان في هذه الدنيا تهيجه رغبة حمقاء إلى شيء محرم ما إن يواقعه حتى يحس الفراغ والضياع وحقيق بالإنسان أن يتأسك أمام عوامل الاستفزاز ومزالق القدم .

ونتساءل مرة أخرى ما مصدر هذا الصوت النابي الجهول الذي يُزل الإنسان .

والجواب أن له مصدرين اثنين : أولهما نفس الإنسان أو الالهاف التراي الذي غلفت به ، والمصدر الثاني من كائن آخر خاصم الإنسان من النشأة الأولى وهو الشيطان الذي آلى على نفسه استدامة هذا الخصام إلى يوم الشور ..

في المصدر الداخلي للمعصية يقول الله تعالى « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً . »

فالنسيان وضعف العزيمة رذائل وقع فيها الإنسان الأول ، ومع تولدها في نفسه تنهياً الإمكانيات للشيطان كي يوسوس ويخادع ويقول لآدم وامراته « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما : إني لَكُما

مِنَ النَّاصِحِينَ ، فدلّاهما بغرور»

وما تمت هذه التدلية ولا نجح الشيطان في خدعته إلا لأن آدم كان قد ضعفت ذاكرته وضعفت إرادته .

الضعف النفسي أولاً ثم وساوس الشيطان ثانياً ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير في الخداعهم !

إن للشيطان محطة إرسال يذيع منها فنون الإغراء والإغواء ، والإنسان هو الذي يهيء أقطار نفسه لاستقبال هذه الإذاعات والتجاوب معها .

وأنت الذي تتخير ما تسمع من محطات «الراديو» المختلفة ، ولو شئت أغلقت للفور ما تعاف سماعه ، أو ابتعدت عنه حتى لا يصل صدها إلى سمعك ، أو قاومتها بمشاعر النفور والمقت حتى لا يستولي عليك !!!

وقد مُنح الشيطان من أول يوم القدرة على إغراء الإنسان وخداعه .
ودفعته خصومته إلى ابتكار وسائل كثيرة ونَصَب أحابيل مختلفة لإيقاع الأغرار والغافلين ، وقيل له : «**وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ**» .

وكان الشيطان لا يملك أكثر من الكلام يكذب فيه وَيَغُرُّ ، وقد نبه الله آدم وبنيه إلى هذا العدو الغار الكاذب . وحذره من الشرك المنصوبة والأقاويل المزوّرة .

إن الشيطان يَعِدُّ كاذباً ، ويقسم حائثاً ، وينصح غاشاً ، ويلين ليلدغ وينحني ليشب ويصرع .

وهو في هذا كله لا يملك إلا شيئاً واحداً ، الكلام ، الكلام وحده ! فلا يجوز أن نصدقه « يا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ ، وَلَزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » أَفَتَخَذُونَهُ وَذَرَيْتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا »

ومع ذلك فقد قدر الشيطان بالكلام المضلل أن يزيغ الكثيرين .

وسيقول يوم القيامة لمن استجابوا له « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ »

إن سلاح الشيطان مفلول والنجاة منه ميسورة ميسورة !! وعندما يقع البعض في قبضته فلا حماية له لأن القانون لا يحمي المغفلين .

ومن ثم فالجهد الحقيقي في النصح والتربية يتجه إلى الإنسان أولاً وآخرًا ليوقظ فيه أسباب الحذر ، وليسد الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها الشيطان بوساوسه الماكرة .

لقد أشرنا إلى الأمشاج التي يتكون منها الإنسان ، والحق أن في الإنسان - مع أصله السماوي - طباعاً لا يجوز تركها حرة تتصرف كما تشاء ، لا بد من مراقبتها وإخضاع حركاتها وسكناتها لحكم الله ، والا جرّته من القمة إلى الحضيض « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

وليس معنى هذا الردّ أنه تحوّل إلى مسخ ذميم بعدما كان في ذروة الحسن !

كلا ..

المعنى أن إمكانات الهبوط جاورت معاني الرفعة في نفسه ، وأنه يستطيع التحليق والإسفاف معاً ، وذلك سرُّ الاستثناء بعد « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أي

سوف يبقى قوامهم حسناً ، مادياً ومعنوياً !!

وجاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر الطباع الرديئة التي ينبغي الخلاص منها .

فالإنسان «أناني» يحب نفسه وحسب ، وقد تكون محبة النفس أصلاً في استبقاء الحياة ، ولكن هذه المحبة تتحول إلى مرض خطير يورث الشره والطمع والبغي واجتياح الحقوق بنزق .

وقد ذكر القرآن أن هذه الأثرة لا يطفئها الغني مهما اتسع «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذْنًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا» !!

والإنسان نساءً أو غافل ، وقد يكون هذا أو ذاك أصلاً في استبقاء الحياة ، فلو استصحب المرء حزنه إلى الأبد على ما فقد ما صلحت الدنيا .

ولكن هذا الذهول قد يكون جرثومة الكنود ونكران الجميل ونسيان الربّ وما أولى «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا» «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ» .

والإنسان الذي يحلو له أحياناً أن يفخر ، ويتطاول ، وينظر إلى السماء بقلة اكتراث ، تذله علة في أي مكان في جسمه أو تُزله غلطة في أي وقت من تفكيره مهما كان عبقرياً .. «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا»

والإنسان محتال كبير في الدفاع عن نفسه ، والتماس الأعذار لأخطائه وعداً ما يقع منه وجهة نظر مقبولة أو مغفورة «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا» .

وهذه الطبائع جميعاً مزالقة لمن يسترسل معها ، وقد نبه القرآن الكريم إلى أمراض شتى تعترى النفس ، فالإنسان قد يبطر مع الغنى ويطنى مع السلطة ويقنط مع الفشل ، وقد يستحلي من شهوات النساء ، والرياء ، والاستعلاء ما يحيله إلى عبد لنفسه وهواه .

ولكن الفكاك من هذه الآثام كلها ميسور فإن القرآن الكريم لما خوّف عواقب هذه الانحرافات الإنسانية ذكر أسباب النجاة منها « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ »

وما أجملته سورة العصر من وصف للداء والدواء فصلته سور أخرى .

نختار منها سورة المعارج التي أسندت للإنسان هذه الخلال « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مُنُوعاً .. » لكن الإنسان يبرأ من هذه العلل إذا قام بحملة العبادات المفروضة .

ونتساءل : هل هذه العبادات « مصل » واق أم شفاء من أمراض توجد وتتجدد ؟ قد يكون هذا أو ذاك !

ولنتدبر أولاً الاستثناء الذي تضمنته السورة الكريمة « إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى ذَلِكَ فَاولئك هم العادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي

جَنَاتِ مُكْرَمُونَ .

لا شك أن هذه العبادات مجتمعة تنشيء إنساناً كاملاً شريطة أن تؤدي أداء حقيقياً لا أداء تمثيلاً وأحب أن أقف عند واحدة من هذه العبادات لأتأملها وأتعرف على آثارها النفسية ، وهي قوله تعالى «وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ»

إن الإنسان المسلم يجب أن يكون مستعداً دائماً لأداء الشهادة على وجهها ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويدعم العدالة .

والقيام بالشهادة يتطلب صراحة لا تخاف في الله لومة لائم ، ذلك أن الحق يختنق في هذه الدنيا وسط دخان الشهوات المتصاعد من هنا ومن هناك .

والمرء ينكل عن الإدلاء بالرأي الصحيح والقول الصحيح لأنه يخشى على مستقبله مثلاً ، أو يريد محاباة قريب ، أو يطمع في مال ، أو يتطلع إلى منصب إنه لا يستبين وجه الله من غلظ الحجب على بصيرته !!

والمجتمع الإسلامي يسقط مع اختفاء الذين هم بشهاداتهم قائمون .

وكم رأينا من أناس قدّموا وحقهم التأخير أو أخرّوا وحقهم التقديم ، لأن المؤمنين (!) ليسوا بشهاداتهم قائمين ، ربما سكتوا أو قالوا فلم يعدلوا !!

ولقد عرفت لماذا سبقت بعض المجتمعات سبقاً بعيداً عندما قرأت أن زوج الملكة في هولندا عزل وجرد من أوسمته لما كشفت صلته بقضية رشوة ، وأن رئيس وزراء اليابان عزل ورمى به في السجن للتهمة نفسها !!

إن القيام بالشهادة يعني الا نترك صاحب حق مستوحشاً في هذه الدنيا لا صديق له ولا ظهير .

والشهادة بداهة ليست ما يقال أمام المحاكم فقط ، بل ما يقال في كل خلاف أو مشورة أو اختيار أو انتخاب أو أي شأن ذي بال .

والقائم بالشهادة رجل أسلم لله وجهه وقرر أن يحيا للحق وحده !

وقد تتشابك في نفس الإنسان عدة طباع مثل تشهي الحياة ، وتعجل النتائج . وغلبة الأثرة ، فيصدر أحكاماً خاطئة على ما يصيبه من خير أو شر ، وتستبد به المبالغة فتجمع به مشاعره نحو نفسه ونحو الناس . وفي هذا يقول جل شأنه « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُورًا . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ : ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

في هذه الآيات صورة الإنسان الذي تستعبده الساعة الحاضرة وحدها ، فهو عند فقد ما يسرّ منهزم كسير من شدة القنوط ، وعند وجدانه ، ينتشى ويغترّ من شدة الفرح .

وكان يجب أن يتألم نفسه في الحالين وينظر إلى أصابع القدر وراء ما يحسّه فيستكين لله ويؤدي ما عليه بتعقل ..

ثم ينضم إلى هذا الإحساس المعتدل شعور آخر ، أساسه أن ما يناله من خير ليس تمّيعاً له وحده ، فإن للمحرومين سهماً فيما جاءه ، وقد يكون سهماً كبيراً « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ .. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ .. كَلَّا ، بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » .

والآيات تشير إلى أن الغنى ابتلاء ، وأن الفقر ابتلاء ، ومن الخطأ تصوّر الإغناء تكريماً والإفقار إهانة العبرة بالتناج ، فإن الذي يستعفّ في فقره أسبق عند الله وأرجح في الميزان من الذي يطغى بغناه .

والذي يمنح الثراء ، فيفتح أبوابه لليتيم والمسكين ويسارع بالبذل في مواطن النفقة هو الإنسان الناجح في الامتحان السابق في الميدان .

لكن البشر - للأسف - يحسبون العطاء تدليلاً لأشخاصهم ، والحرمان إهانة وإذلالاً .. وذلك خطأ بالغ في فهم الدين والدنيا ..

وعندما خال الناس أن الغنى تكريم ذاتي لبعض الأفراد والأسر ، وأن الفقر هوان ذاتي قصده الله لبعض الأفراد والأسر ، عندما شاع ذلك انفجرت براكين الأحقاد ضد أصحاب الثروات ، وانفجرت معها عواصف الإلحاد والكفر ، وتعرض مستقبل الإنسانية كلها للبور ، وهل انتشرت الشيوعية إلا في هذا الجو ؟ إن العبادة هي السِّلْمُ الفذ الذي تصعد فيه النفس الإنسانية إلى الكمال المنشود .

يجب على الإنسان أن يعرف ربه ، وأن يقف في ساحته عبداً نقيّاً من الآفات والعاهات .

إن آدم لما نسى وضعف أضحى دون مستوى الجنة فأخرج منها . ولن يعود أبناؤه إلى الجنة وهم يحملون أوزار النسيان والضعف ، لا بد من إيمان واضح وعمل صالح .

وفي طول القرآن وعرضه تأكيد لهذه الحقيقة التي يحاول كثيرون الزوغان منها ..

ونعود إلى الخاصة الأولى في تكوين آدم وبنيه ، خاصة العقل العالم بالأشياء

الخبير بالحقائق والأسماء ، إن الإنسان المكلف بعبادة الله لا يعبد به بشبهه المحدود ،
وجسمه المادي القاصر ! إنما يعبد به بتطويع طاقاته كلها لله . إنه يضع بصماته المؤمنة
على الأرض حتى إذا سجد سجد معه زرعها وضرعها وحديدها وذهبها وكل ما ملك
وارتفق !!

وأرى أن ذا القرنين عندما ساوى بين الصدفين ، وذوب الحديد والنحاس داخل
سلسلة من القلاع التي تحمي الضعاف وتذود الطغاة - أرى أنه أحق الحق وأبطل
الباطل لا بالكلام وحده ، ولكن يجعل الأرض ومعالمها ومعادنها تؤدي وظيفته
وتحمل طابعه وكأنها امتداد لنبض قلبه وبطش يده .

وهل ملكَ الله الأرض للإنسان إلا لهذا ؟

عندما تعطي خادمك أسباب الزينة والوجاهة فيجيثك أشعث أغبر فأنت تضيق
به .

والعباد الجهلة بالحياة ، الغرباء في الكون ، سوءة زريّة ، وجهل أو تمرد على
الخلافة الإنسانية في العالم .

ونحن المسلمين سنحاسب حساباً عسيراً على تخلفنا الفاضح في العلوم الطبيعية .
ربما احتاج الإنسان كي يصلي إلى مساحة من الأرض لا تعدو ذراعاً في ذراع ،
ولكنه كي يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض
إلى المريخ بل إلى الشمس .

معرفة في هذا العصر تهيمن على ما في الأرض وما فوق البرى ، وتخرق طباق
الجو متحسنة آفاقاً بعد آفاق من أغوار الكون البعيد .

كتب الدكتور فاروق الباز الخبير في غزو الفضاء عن حاجة العرب إلى «متنقل

فضائي» يستعينون به على اكتشاف أرضهم وما أودع فيها من خيرات ، وأهاب بالحكومات العربية أن تمّول هذا المشروع ، قال : « ليس من المستبعد في نظري أن تخطو دولة أو دول عربية هذه الخطوة فتحقق ما فيه الخير للعالم العربي كله . نحن نعلم أن الصحراء تكوّن ٩٦٪ من جملة الأراضي العربية ، ولا بد من الانتفاع بجزء كبير من هذه الصحراء إلى جانب دراستها دراسة علمية صحيحة فنحن لا نعلم عن الصحراء إلا قليلاً ، وربما كان سبب هذا أن علماء الغرب لم يهتموا بالصحراء لقلة الصحارى في بلادهم ولصعوبة التنقل في صحرائنا الشاسعة .!!»

ويلزم العلماء العرب أن يدرسوا الصحراء وتضاريسها وتراكيبها دراسة تفصيلية ، لأن البادية منبع كل ما هو عربي .

والصحراء تحيط بالعرب من كل ناحية ، يتضح هذا لرواد الفضاء في المدار الأرضي وضوحاً تاماً حتى أن رواد القمر كانوا يتعجبون لظهور الصحراء العربية في صورههم الملتقطة كتلة واحدة على بعد ٤٠٠٠٠٠٠ كيلومتر .

قال : «وتعتبر الصحراء خزاناً عظيم الشأن للنفط وللمياه الجوفية ، ويصلح بعض أجزائها للزراعة المثمرة .

وأهم من ذلك كله أن الصحراء خزان عظيم لطاقة لا نهاية لها هي الطاقة الشمسية ، ولذلك يجب أن تشمل دراسة الصحراء العربية تحديد أصلح الأماكن لأبحاث الطاقة الشمسية وطرق الاستفادة منها .

ومن الناحية الاجتماعية يجب أن تشمل الدراسة التعرف على الأماكن المختارة لمعيشة الإنسان وإنشاء المدن الكبيرة والصغيرة وطرق المواصلات ومنتجعات السياحة والترفيه ، وتحديد بنية الحضرة في الصحراء لاستغلالها ، ومعرفة المؤثرات المختلفة على حياة البدو ، إلى غير ذلك مما يجعل الصحراء بقاءً لائقة للعيش الكريم» .

قال : « وينجح هذا العمل إذا تم على مستوى عربي جماعي ! فالصحراء العربية برغم ترامي أطرافها إقليم واحد له ميزات ومعالم جغرافية واحدة ، ولا صلة لهذه الوحدة بالحدود السياسية الوهمية بين الدول وخطوط الشتات التي مزقت الكيان الواحد » .

قال : « أما المطلوب لدراسة الصحراء على المدار الأرضي فهو في اعتقادي قمر صناعي يرحل إلى الفضاء مع «المتنقل الفضائي» — الذي سبق للدكتور الباز اقتراحه — يرجع صورَه الملتقطة إلى الأرض روادُ الفضاء المختارون ، وذلك بين آونة وأخرى !

ويكون هذا القمر عربياً في أغلب نواحيه ، يختار مكُوناته علماء يقومون بتشغيله ، وتدرس المعلومات المرسلَة في عدة معاهد عربية أو في مركز عربي موحد تشترك فيه الدول العربية كلها » .

قال « وكنموذج للمكونات التي يجب أن يشتمل عليها القمر الصناعي العلمي ينبغي وجود عدة «كاميرات» أهمّها «كاميرا» للتصوير الطبوغرافي ، و«كاميرا» للتصوير الدقيق ، أي بانورامية و«كاميرا» لأخذ الصور المتعددة الأطياف ، على نمط أجهزة لاندسات بل أكبر دقة وأقل تعقيداً .

الكاميرات الطبوغرافية تلزم لأخذ الصور المطلوبة لخرائط على مقياس ١ : ١٥٠٠٠٠ من ارتفاع ١٨٠ كيلومتر ، وطول عدسة هذه «الكاميرا» هو ٣٠٥ ملليمتر ومساحة الصورة الواحدة ٤٦×٢٣ سنتيمتر.. الخ »

إنني تعمّدت هذا النقل ليعلم من يجهل أن دراسة الكون شيء مثير وخطير ولا بد منه لدينانا وديننا معا .

وأن هذه الدراسة برع فيها غيرنا ونبت لديه جيل من الرواد والباحثين العابرة على حين تراجعنا نحن وراء وراء .

إن هذا التخلف إذا بقي فسوف تتلاشى عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر ، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء ..

وإنني لأصرح دون موارد أن هذا التخلف جريمة دينية لا تقل نكراً عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التي ألفنا الترهيب منها .

بل لعلها أشنع وأوخم عقبي .

إن الجو الذي يحيا فيه قارئ القرآن يسع البر والبحر ، والسماء والأرض ، ويطلق الفكر ساجحاً في ملكوت لا نهاية له .

ويؤكد للإنسان إنه ملك يخدمه كل شيء فما الذي جعل الفكر الديني يعيش في قوقعة ؟

إنني أحس فزعاً كبيراً عندما أرى بعض المتصدرين في العلوم الدينية - هكذا يوصفون - يماري في دوران الأرض أو ينكر وصول الإنسان إلى القمر ! لماذا ؟

لأنه يعيش في مغارة سحيقة صنعها أشخاص قاصرون ، لا يتصلون بحقيقة القرآن إلا كما يتصل القروي بعلوم الذرة ..

وإذا كنا هنا قد أطلنا الكلام في التسامي الروحي للإنسان فلنذكر أن القرآن الكريم ينشد التسامي العقلي والخلقي معاً .

ويشدد النكير على السقوط الفكري كما يشدد النكير على السقوط النفسي .

أي أنه يحارب الخرافة بالقوة نفسها التي يحارب بها الرذيلة .

بل إن منابع الإيمان في نفس الإنسان تنبجس من علم عميق محيط دارس للكون دراسة ملاحظة وتجربة واستقراء لا دراسة تخمين وظنون وخيال .. وإذا لم تنبعث نهضتنا من هذا الأصل فلن تكون نهضة إسلامية صحيحة .

إن هذا العلم بالمادة ، بالفطرة التي فطر الله الكون عليها ، بالسنن التي تحكم هذا الكون علوه وسفله ، وطوله وعرضه ، إن هذا العلم ينظم الإنسان مع الملائكة في الشهادة لله الكبير بالوحدة والعدل .

نعم إن أولى العلم ، والملا الأعلى يؤكدون هذه الحقيقة التي شهد الله بها لنفسه فقال « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .